الفصل العاشر

من الجنة .. إلى سجن أبو زعبل

عدت إلى القاهرة فى الخامس والعشرين من شهر يونيو الحار، وبعد مرور حوالى خمسين يومًا فى «جنة عدن»، محملًا بذكريات ومختزنا لمشاعر وتجربة إنسانية وشعورية جديدة وحنونة فى القلب والوجدان.

وعدت أيضًا محملًا بصدمة حضارية Civilized shock عادةً ما يتعايش معها لفترة من الزمن ذلك المواطن العادى أو المثقف من العالم الثالث، الذى تصادف أن عايش مجتمعًا أكثر حداثة، وأفضل تنظيمًا، وأعمق إنسانيةً واحترامًا للبشر ولمواطنيه.

واختزنت داخلى ذلك الشعور المقارن القاسى بين كل ما شاهدت وعايشت، وكل ما كنت أعيشه فى مجتمعى، أو أعاود معايشته من جديد فى ذلك المجتمع المصرى الراكد والجامد والمتخلف.

قال بعض الأصدقاء أن هذا الشعور عادة ما يصاب به كل المسافرين إلى الخارج، قد يستمر لفترة من الزمن، تطول أو تقصر، بعدها يذهب هذا الشعور ويتوارى فى ظلال النسيان، ولكنه أبدًا لم يفارقنى منذ تلك اللحظة حتى يومنا.

عشرون عامًا أو يكاد، وما زال يعذبنى، ويجرح كبريائى الوطنى، ويزيد من غضبى وسخطى على تلك «العصابة» التى تحكم وتدير هذا البلد الكبير (مصر)، منذ ثلاثين عامًا أو يزيد، دون أن تُحدث فيه تطويرًا حقيقيًّا، ودون أن ترتقى بالناس وطريقة معاملاتهم إلى مصاف احترام آدميتهم وإنسانيتهم، فنحن نعامل ـ دون أدنى مبالغة ـ من قِبَل هؤلاء وكأننا حيوانات شاردة.

نعم هذه هى الحقيقة دون تجميل أو تبديل.

وقد زاد من قناعاتى، وعمق إحساسى بهذا الظلم الاجتماعى والسياسى والثقافى، زيارتى لتلك المدينة الجميلة «جنيف»، وبعض المدن والقرى السويسرية فى العام ٢٠٠٣، حتى العاصمة الأردنية (عمان) الحديثة النشأة والتكوين.

على أية حال، عدت من اليابان مصدومًا، وعادت معى معاركى ومشاغباتى الوظيفية والسياسية، التى هى فى معظمها مفروضة علىَّ، أو شاءت المقادير أن تكون نتيجة لاختياراتى الصعبة، بل والمستحيلة.

كان فى انتظارى بمطار القاهرة زوجتى وأمها، مصحوبتين بزميلى «ناصر زكى» وصديقه «عماد»، وفى صحبة زوجتى حقيبة أطفال صغيرة، محمولًا فيها ابنى الأول «حسام».

تأملته مليًّا، ثم قبلته، وهنا لاحظت أنه أسمر اللون بصورة غير مريحة، وما زالت ملامحه غير جميلة، علقت ضاحكًا:

- إذا استمر على هذه الحال بعد ثلاثة أشهر من الآن، فسوف أتركه على رصيف الشارع وأمضى.

ضحك الجميع، ومضينا إلى حيث الحياة المصرية، والشقاء المصرى من جديد.

كان أولى مهامى التى باشرتها بعد العودة، هو استكمال إجراءات مصيف العاملين وأبنائهم فى شاطئ «مرسى مطروح» الذى انتزعته انتزاعًا من المجلس الأعلى للشباب والرياضة، وسط تآمر ودسائس غير متصورة من بقية أعضاء مجلس إدارة جمعية النشاط الاجتماعى وفى مقدمتهم السيدة (س.ع) ومن ورائها أستاذتها وقدوتها عضو مجلس الشعب «ثريا لبنة».

وكنت قد كلفت الزميل «ناصر زكى» والسيدة «سعاد الإسناوى» بأن يتوليا أثناء سفرى جمع الأقساط الشهرية المقررة على الحاجزين فى هذا المصيف (بواقع خمسة عشر جنيهًا لكل مشترك شهريًّا)، حتى يكتمل قيمة اشتراك الفرد وقدرها خمسة وسبعون جنيهًا شاملة الإقامة وثلاث وجبات يوميًّا، والتنقلات داخل مدينة «مرسى مطروح»،

وكذلك التنقل بين القاهرة ومرسى مطروح. هذا بالإضافة إلى مصاريف إقامة حفلات السمر أثناء الإقامة هناك.

وكان بقية أعضاء مجلس إدارة الجمعية ـ وعددهم عشرة أفراد ـ قد تركونى وحدى أتولى هذا الموضوع بكل تعقيداته المالية والتنظيمية على أمل أن «أغرق» فيه، فيبدو فشلى واضحًا للجميع وتكون نهاية دورى النقابى والاجتماعى فى الجهاز، ولم يكن قد بقى على الرحلة سوى أقل من شهرين عندما عدت من اليابان. وكانت العجلة تدور حتى الآن بصورة منتظمة وجيدة، وساهم العداء المعلن من جانب بقية أعضاء مجلس الإدارة لى وللرحلة، وحملة التخويف والترهيب التى شنوها، فى زيادة إقبال العاملين عليها، وترقب الآخرون ما ستسفر عنه تلك التجربة الفريدة فى تاريخ الجهاز.

كما لعب إلغاء تنظيم مصيف «جمصة» بسبب عدم حصول أعضاء اللجنة على العمولة المتصورة، فى زيادة الإقبال كذلك على مشروع مصيف «مرسى مطروح».

وأمكننى التعاقد مع مورد شاب للأغذية من هؤلاء المتعاقدين مع المجلس الأعلى للشباب والرياضة، ويبدو أن الشاب قد اندهش أننى والشباب الذين اخترتهم لمعاونتى فى تنظيم هذا المصيف (ناصر ـ عادل ـ سعاد الإسناوى)، لم نطلب لأنفسنا شيئًا، مثل العمولة والسمسرة، التى يبدو أنها من التقاليد المعتمدة فى مثل هذا النوع من النشاط.

فالتزم الشاب بالمواصفات المعتمدة والأوزان المقررة للوجبات الثلاثة على مدار الأسبوع.

وحان موعد الرحلة، وفى صباح يوم السفر، فوجئنا برئيس مجلس إدارة شركة أتوبيس غرب الدلتا، يرسل إلينا أحدث سياراته بعد أن قام رئيس الجهاز «د. حسين رمزى كاظم» بالاتصال به، يطلب منه و يوصيه برعايته الشخصية لتلك الرحلة، وكان رد الفعل التلقائى والعفوى من جانب العاملين هو التصفيق والصياح فرحًا بتلك المفاجئة الرقيقة.

إذن .. بدا اليوم مصحوبًا بالمفاجآت السعيدة، وأدى التنظيم الجيد أثناء الرحلة الطويلة (٧ ساعات)، وإقامة المسابقات الثقافية، وصرف جوائز للمتسابقين فى سيادة إحساس عميق بالراحة والسعادة لدى الجميع.

وهناك حاولت ـ وبقية الشباب المعاون لى ـ تقديم المثال والقدوة، فقمنا بإسكان جميع العاملين وأبنائهم فى الموقع المخصص للخيام، أما نحن فقد قمنا بنصب خيمة على رمال المعسكر بعيدًا عنهم، وحظرنا اقتراب أحد من غير الأسر من الخيام المخصصة لهم، وهكذا أثبتنا بالممارسة مفهوم أن الخدمة العامة تكليف وليست تشريفًا.

مضى الأسبوع كأحسن ما يكون، وعاد العاملون سعداء، بل إنهم فاجأونى بأن قاموا بإعداد مذكرة رفعوها إلى رئيس الجهاز، شاكرين له جهوده، ومعبرين عن سعادتهم بالجهود التى قمت بها وبعض الشباب المعاون لى من أجل نجاح هذه التجربة الفريدة، فوقع الأمر وقع الصاعقة على بقية أعضاء مجلس إدارة جمعية النشاط دون استثناء.

ولم تكد تمضِ على هذا المصيف عدة أيام، إلا وتفجرت أزمة مصنع الحديد والصلب فى حلوان، وقامت قوات وزارة الداخلية بأوامر من وزيرها السليط اللواء «زكى بدر» باقتحام المصنع بالمدرعات والرصاص، فسقط على الفور العامل «عبد الحى» صريع الرصاص العشوائى، كما جرح العشرات من العمال، وقبض على المئات منهم، ووجدت نفسى مرة أخرى فى عين العاصفة.

الوزير يتحول إلى مخبر...!

حرك اعتصام عمال مجمع الحديد والصلب فى حلوان، قوى اليسار من أجل النهوض بعيدًا عن عباءة النظام التى نجح فى احتوائهم فيها باتفاق مشبوه تم بين مستشار الرئيس الجديد «د. أسامة الباز» وبين ورئاسة تحرير جريدة «الأهالى»، وحزب التجمع القابع خلفها فى شتاء عام ١٩٨٣.

أصبح حزب «التجمع» بمثابة الباب الخلفى للنظام فى صفوف اليسار، ولعب (ر.س) دور العين الفاحصة لتحركات فصائل اليسار الخارجة عن طوق «حزب التجمع» ليبلغ عنها أولًا بأول، وتمادى فى أن يصبح قلم النظام وسياساته فيما يسمى الحرب على «الإرهاب» فى التسعينيات، وكان يفاخر بتمنطقه «المسدس» الذى منحته إياه وزارة الداخلية، وعينت له بعض أفرادها كحراس شخصيين من خطر محاولة اغتياله من قبل الجماعات الدينية الإسلامية.

ووسط هذا الحراك الجديد، خاصة بعد اقتحام قوات الأمن للمصنع، والقبض على العشرات منهم، نشط عدد من اليساريين من أجل توفير الدعم المالى لأسر هؤلاء العمال البسطاء، وكذلك توفير الغطاء القانونى للمعتقلين منهم، من خلال تشكيل مجموعات من المحامين لحضور جلسات التحقيق، وتنظيم الزيارات المقررة لهم فى السجون وغيرها من الإجراءات المعتادة.

وكان من ضمن مهامى التطوعية فى هذا السياق، جمع تبرعات مالية من موظفى الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، أو من غيرهم المتعاطفين مع العمال، فأخذت أجوب مكاتب الموظفين فى طوابق الجهاز العشرة، مستفيدًا من سمعتى الطيبة، والزخم الذى حصلت عليه بنجاح مصيف «مرسى مطروح» وغيرها من الخدمات التى قدمتها إليهم.

وقد سعدت بالروح البادية من الموظفين والتعاون والمساندة، حيث تبرع الكثيرون منهم، وعلى ما يبدو لقد نجحت جولتى الأولى فى ذلك النهار من جمع ما يقارب مائة وعشرين جنيهًا.

بدا أن الأمور تسير بشكل طبيعى، ولكن لم يمضِ على جولتى تلك سوى ساعة زمن، إلا ووجدت استدعاءً من رئيس الجهاز (د. حسين رمزى كاظم) إلىَّ، فتوجهت إلى مكتبه دون أن أدرى عن أى شىء يطلبنى. استأذنت ودخلت إليه، كان الرجل هادئًا، قام من مقعده مرحبًا بى، مادًّا يديه بالسلام، وما أن جلست أمامه حتى بادرنى بالسؤال:

- هو أنت يا فاروق جمعت فلوس وتبرعات من الموظفين النهارده؟
- أيوه يا افندم
- أجبت

فاستطرد:

- ليه؟
- عشان التبرع لأسر وعائلات عمال الحديد والصلب الذين قبض عليهم.

فاعتدل فى مقعده، وقال:

- أنت عارف أن ده ممنوع، وأنا شخصيًّا لو رغبت فى جمع أموال لا بد من الحصول على إذن رئيس الوزراء.

صمت قليلًا، ولم أجب انتظارًا لما بعد، واستكمل الرجل:

- أنت جمعت كام يا فاروق؟
- حوالى خمسين جنيهًا يا افندم.

لم أشأ بالطبع أن أذكر الرقم الحقيقى.

- فرد قائلًا:
- طيب عشان خاطرى .. رد الفلوس للناس، أو خدهم منى أنا ووقِّف هذا الموضوع.
- حاضر يا افندم، ثم انصرفت.

لم أكن أنوى بالطبع رد التبرعات للموظفين، لما لذلك من أثر سلبى على صورتى من ناحية، وفى ربط مشاعر الموظفين بالحدث والعمال من ناحية أخرى، ويبدو أن رئيس الجهاز لم يكن يستطيع تحمل أن يبلغ أحد غيره أجهزة الأمن بما جرى منى فى

الجهاز ذلك اليوم، وإلا تعرض هو للتأنيب أو المساءلة، فآثر أن يقوم بنفسه بالاتصال بوزير الداخلية «اللواء زكى بدر» وإبلاغه بما جرى منى، وعلى الفور تولت مباحث أمن الدولة وضع مراقبة مكثفة لشخصى، تتولاها مجموعة من ثمانية أفراد يتناوبون على مراقبتى، فى كل تحركاتى وسكناتى، بعضهم كانوا مترجلين، وبعضهم الآخر كان يستقل سيارة، وآخرون كانوا يستقلون دراجات بخارية.

وهنا أدركت أننى قد وضعت على قائمة أقرب حملة اعتقالات قادمة، وأعددت نفسى للموقف تمامًا.

ولم تمضِ سوى أيام قليلة، وفى فجر الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٨٩، كنت أحل ضيفًا على سجون النظام والحكم من جديد فى أسوأ تجربة سجن مررت بها منذ بدأت أشارك فى العمل العام والنشاط السياسى.

□ □ □